المحاضرة السابعة: القصص الشعبي المفهوم والدلالة.

يُمثّل التراث الشعبي إرثًا غنيًا توارثته الأجيال جيلاً بعد جيل تناقلوه، وحفظوه ظهرًا عن ظهر قلب، فقد كان بمثابة الأمانة الغالية التي يتوّجب المحافظة عليها، من التلف، والنسيان، تُعتبر القصة جملة من التعابير اللغوية، حيث تتناول مجموعة من الأفعال حدثت، أو يفترض أنها حدثت في زمن ما، إذ يقوم بروايتها راو يوجه روايته (رواية الأفعال) إلى جماعة من الناس يستمعون لما يرويه لهم من نصوص،وعيه فإنّ القصة لا تتحقق إلا بوجود عناصر ثلاثة على مستوى الفعل الحقيقي، راو(سارد) رواية(مسرود)، مروي له(مسرود له) أو بتعبير آخر مرسل، رسالة مستقبل.

هذا من جانب فعل الرواية، أما من حيث الرسالة أو المسرود، فهي موجودة قبل الراوي، والمروي له، لأن نص القصة (الرسالة) نص موروث يستدعي من الزمن التاريخي، الزمن السابق لفعل الرواية، لأن عالم القصة له زمنه الذي هو زمن متخيل أو هو زمن يحمل جزءا من الواقعية التاريخية المعاشة في زمن ما. فهو زمن يناقض زمن الواقع الاجتماعي المروي فيه النص، لأنه لا يحكي واقعا آنيا، ولكن ربما يسقط الآنية على الماضوية محاولةَ إنتاج واقع جديد – نفسيا على الأقل، وعليه يمكننا أن نميز بين زمنين: زمن القص وهو زمن الحاضر الروائي، أو الحاضر الذي ينهض فيه السرد، وزمن الوقائع، و هو زمن ما تحكي عنه الرواية ينفتح في اتجاه الماضي، فالنص المروي، يكتسب بعد منشئه صفة السيرورة الدائمة، الملاحقة لديمومة الزمن، و يكفي للراوي استدعاءه أنى له، ليحتل حيزا زمانيا آنيا. ويبقى الراوي دائما في حاجة إلى مروي له حتى يكتمل الفعل الروائي.

تُمثّل القصة الشعبية في رأي أغب الباحثين أكثر دلالة على روح الشعب، وأعماقه، وأصدق تصويرًا لأفكاره، ومعتقداته الراسخة، والقصة الشعبية ليست قصة شعب بعينه، أو عصر ما وإنما هي قديمة قِدم الشعب نفسه، فمنذ أن وجد على هذه الأرض فهو يحكي. يحكي يومه الذي يعيشه، يحكي أمسه الذي عايشه، فالحكاية تسايره ويسايرها حتى أصبحت جزءا منه، وأصبح جزْءًا منها.

مفهوم القصة الشعبية:

لغة: بالعودة إلى المعاجم نجد أنّ القصة من فعل قصّ، وقصّ أثره قصا، وقصيصا تتبعه. والخبر أعلمه. فارتد على أثارهما قصصا، أي رجعا من الطريق الذي سلكناه، ويقال : قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء، والقصة : الخبر وهو القصص، وفعل القصّ في محور العّام يدور حول تتبّع الأثر أو الأخبار عن الشيء، وهو المعنى نفسه الذي يؤديه مفهوم القصة.

اصطلاحًا: تخبرنا القصة عن مجموعة من الأحداث الدائرة في الإطار العام للنص، أو هي تتبع أثر سير الأحداث المتعاقبة التي تحركها شخصيات القصة، وتبقى الرواية تسير وراء أثرها من البداية إلى النهاية..

الملاحظ على التعريفين السابقين هو وجود تشابه كبير بين كل من المعنى المعجمي، والمعنى الاصطلاحي للقصة، هذا إذا لم نقل يكاد يكون المعنى نفسه، ما دام يدل على الأخبار وتتبعها، سواء كانت هذه الأخبار حقيقية أم هي من صنع الخيال، وعليه نستطيع القول عن القصة الشعبية بأنّها (فن القول التلقائي العريق، المتداول بالفعل المتوارث جيلاً بعد جيل، المرتبط بالعادات، والتقاليد. والحكاية الشعبية هي العمود الفقري في أيّ تراث شعبي)، كما تُعرف أيضًا ليس له مؤلّف لأنّ الرواة فيها متعدّدون، وهي تعبير عن شخصية الجماعة، ولا يُمكننا تصوّر شعب ما لا حكايات شعبية له).

من الملاحظ في التعريفين السابقين استخدام لفظة القصة الشعبية أوّل الأمر، ومن ثمّة استخدام لفظة الحكاية الشعبية، في الآخر، ليؤدّيا الغرض ذاته، وكأنّهما وجهان لعملة واحدة، لذا يجدر بنا الإشارة إلى هذه النقطة المهمة، فبالعودة إلى الدراسات المختلفة للأدب الشعبي فإننا نجد البعض يتعامل مع النص المروي باسم الحكاية الشعبية، وكثيرًا ما نجد مؤلّفات تحمل عنوان الحكاية الشعبية، ومؤلّفات أخرى أثناء حديثها عن أنواع النثر الشعبي تُشير إلى الحكاية دون الإشارة أو الحديث عن القصة، باعتبارها نوعًا أو شكلاً من أشكال التعبير الشعبي، كما تتعامل مع النّص المروي/ المحكي باسم الحكاية الشعبية لا القصة الشعبية، ومن هنا نستنتج أنّ كلّ من الحكاية، والقصة، يُستخدمان للمعنى ذاته، ويؤدّيان الغرض نفسه، وهو: الحكاية بدل القصة.

والحكاية معجميا:

من الفعل حكى : (حكوت) الحديث. احكوه كحكيته. أحكيه وحكيت فلانا وحاكيته شابهته. وفعلت فعله أو قوله. سواء وعنه الكلام حكاية نقلته.

وحكى الشيء حكاية : أتى بمثله، وشابهه، وعنه الحديث نقله فهو حاك.

و (الحكاية) : ما يحكي، ويقصّ وقع أو تخيل، فحكى أو حاكى كلاهما تعني المشابهة، والحكاية مشابهة، ومحاكاة للأفعال سابقة (فالقصص من المحاكاة: وهي أيضا طريقة لكسب المعارف، وطريقة لمعرفة أحوال الناس، والأحداث التاريخية)؛ فالمحاكاة هي تقليد لواقع وهمي – أو يكاد – للوصول إلى غاية ما، فالقصة أو الحكاية إذا محاكاة لواقع حياتي.

أما بالنسبة للمعنى **الاصطلاحي**:

فالحكاية الشعبية حسب **نبيلة إبراهيم** هي (قصة ينسجها الخيال الشعبي حول حدث مهم، وأنّ هذه القصة يستمتع بها الشعب بروايتها، والاستماع إليها إلى درجة أنّه يستقبلها جيلاً بعد جيل عن طريق الرواية الشفهية)، لتصبغ بذلك الحكاية الشعبية بصبغة الخيال، والبُعد عن الواقع، هدفها الأساس التسلية، والترفيه، انتقلت إلينا بالتواتر، وهذا ما يؤكدّه **رابح العوبي** في قوله (الحكاية الشعبية هي فن قديم، يرتكز على سرد خبر متّصل بحدث قديم، انتقل عن طريق الرواية المتداولة شفويًا عبر الأجيال، ممّا يجعلها تخضع للتطور عبر العصور، نتيجة للخلق الحرّ للخيال الشعبي الذي ينسجها حول حدث أو حوادث مهمة بالنسبة إلى الشعب حيث

يستمتع بروايتها، والاستماع إليها؛ لأنها تدور على محور شخوص، ومواقف تاريخية يُصدّقها الشعب بوصفها حقيقة، وتعبير عن موقف الأسرة أو القبيلة تجاه الأحداث، وبالتالي تعبير عن رأي الشعب، وآماله إزّاء حوادث عصره، وأحواله السياسية، والاجتماعية، ومن ثمّ فهي جزء مهم من تراثه).

في الأخير بإمكاننا القول بأنّه سواء استعملنا القصة أو الحكاية فالمدلول واحد، وإن اختلف الدّالان، وهو اختلاف لفظي، لأن كليهما يؤدّي إلى معنى واحد، كما هو متشابه في الإشتقاقات المختلفة للفظين من الناحية المعجمية، ويبقى اختيار أحدهما على الآخر يخضع لرغبة المستعمل له، وليس على أساس اصطلاح دلالي، والقصة الشعبية (مجموعة من الأحداث مرتبة ترتيبا سببيا تنتهي إلى نتيجة طبيعية لهذه الأحداث، وتلك الأحداث المرتبة تدور حول موضوع عام هو التجربة الإنسانية نفسية أو اجتماعية)، بذلك تكون القصة الشعبية عبارة عن صورة اجتماعية متخيلة لما يجب أن يكون الواقع المفترض، تعتمد على التقويم والمواجهة أو هي (استرجاع للواقع أو ما يتصور أنه بواسطة الكلمة) وهذا الاسترجاع يقوم على مبدأ الحقيقة التاريخية لوقائع اندثرت، أو تآكلت، أو فقدت وظائفها المتنوعة، دلت عليها قرائن تبرز من خلال دلالات الأحداث المروية.

ومبدأ الحقيقة التاريخية لا يقوم على فعلية الحدث، وإنما على اعتقاديه الحدوث بالنسبة للقاص (الراوي) والمستمع معا.

عناصر القصة الشعبية/ الحكاية الشعبية:

° الشخصية:

تعتبر الشخصية أهّم عنصر في بناء القصة/ الحكاية الشعبية، وشرط مهم من شروط نجاحها، ويتّسم البطل في القصة الشعبية، بسمة البطل الملحمة فهو يحمل الصفات التي تؤهّله لهذا الدور كأن يكون قويًا، ونبيلاً، ومحبوبًا، وشجاعًا، وفارسًا مقدامًا.

° الحدث:

وهو مجموع الوقائع المتسلسلة، والمترابطة التي تدور حول أفكار الحكاية في إطار محكم.

° الزمان والمكان:

لا يمكن للشخوص الحكائية أن تتحرّك، للأحداث أن تقع خارج الإطار الزماني، والمكاني، ونعني بالزمان المرحلة التاريخية التي تصوّرها الأحداث، أمّ المكان: فهو البيئة الجغرافية التي تجري فيها الأحداث.

أقسام القصة الشعبية/ الحكاية الشعبية:

وضعت **نبيلة إبراهيم** تقسيمًا للقصة الشعبية/ الحكاية الشعبية، وضبطتها في إطار محكم لترد في أقسام سبع تتجلى في:

1 ــ القصة الخرافية:

وهي التي تحتوي الحكايات السحرية، وحكايات الجّان.

2 ــ قصة المعتقدات:

يُشكّل المعتقد جزءًا هامًا من حياة الناس لذلك فهو يُشكّل النقطة الأساسية لمجموع موضوعات الحكاية الشعبية، باعتبارها مرآة صادقة لعادات، وتقاليد الشعب الذي أنتجها فهذا الأخير يوّدعها خلاصة تجاربه، وُعصارة تفكيره كما يُطعّمه بمعتقداته، وآراءه، ممّا لاشكّ فيه أنّه هناك علاقة وطيدة، وتزاوج بين المعتقد، والواقع، وتأكيدًا على قيمة المعتقد في حياة الناس يمارس من قبل المعتنقين له فتأتي الحكاية تأكيدًا لقيمته، وتثبيتًا لقيمته، ووجوده، فمثلاً في مجتمعاتنا الإسلامية نجد العامّة يؤمنون بالقضاء، والقدر، فكثيرًا ما نسمع عبارة "اللّي كاتبة على الجبين، ما ينّحوها اليدين"، فالله إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون، وقد انعكس هذا تمام الانعكاس على حياتنا، وقصصنا الشعبية حيث جاءت مُعبّرة عن إيمان الفرد بالله، وبقدرته الواسعة، واللاّمحدودة، مهما كان موضوع القصّة فإنّه يجب أن يتماشى، ومعتقد الشعب الذي ينتمي إلى البيئة الإسلامية الموّحدة.

3 ــ قصة الواقع الاجتماعي:

حيث تتّخذ من واقع الناس المعاش، الاجتماعي منه، والنفسي موضوعًا لها، كما أنّها تقوم على الموضوعية، والواقعية في تقريب الأحداث، وأبطالها من الجمهور المستمع، وهي شكل قصصي يتّخذ حادثةً من الواقع النفسي، والاجتماعي الذي يعيشه، معالجة بذلك قضايا اجتماعية تتّسم بالبساطة، والأسلوب الواضح.

4 ــ القصص المرحة/ الهزلية:

تتّسم بالقِصر، والبساطة، تدور حول الحياة الاجتماعية، راسمةَ نماذج بشرية تعيش معنا كـ: الرجل البليد، والزوجة المغفّلة، وعادةً ما يغلب الجانب الهزلي على هذا النوع من القصص، حيث تتميّز بالطرافة، والخفّة، والإيجاز في التعبير، هدفها الأساس تقديم نقد لاذع يكون مُبطّنًا، ومعالجة الأمراض الاجتماعية، مُتخذّةً من الهزل، والمرح، والأسلوب الفكاهي، غطاءًا تستر فيه لتمرير أهدافها، وتحقيق مساعيها.

5 ــ قصص الملامح السياسية:

يُصوّر القاص فيها العلاقة القائمة بين الحاكم، والرعيّة بين السلطة، والنفوذ، والتبعية، والخضوع، يتحدّث فيها عن العلاقة الإشكالية التي تجمع بين الشعب، والسلطة، وماينتج عنها من أحداث، ومساعي يسعى الشعب إلى تحقيقها إمّا لإرضاء الملك، حتى يتّقي بذلك شرّه إذا كان حاكمًا مُستبدًا، أو تعبيرًا عن امتنانه، وعرفانه للعدل القائم، والحكم السلمي الجيّد.

6 – قصص الحيوان:

وهي عبارة عن قَصَص رمزي يُقصد به الكشف عن عيوب الإنسان من خلال حديث الحيوان، والطير، حيث يهدف هذا النوع من القَصَص إلى الإرشاد، والتوجيه، مانحةً للحيوان فيها دور البطولة، وروح الإنسان جاعلةً منه مثله مثل غيره من الكائنات البشرية، إذ تسعى إلى تقمص أدوار الإنسان، واتّخاذ بعض الصفات البشرية كصفة للحيوان، لتشرح بذلك حقيقة طبيعة معيّن تعذّر على الإنسان فهمها، أو تقوم بإرشاده إلى الأخلاق الفاضلة، وضرورة التحلّي بها.

7– القصص الأسطورية:

وهي القصص التي تدور حول الآلهة، والكائنات المقدّسة التي تعتقد بها الجماعة، ولهذه الأساطير علاقة وطيدة بالطّقوس الاحتفالية الموجهة لعبادة الآلهة.